التباين الخلقي

المؤثرات الباطنية الموروثة والمؤثرات الطارئة

اوضحنا في مقالنا السابق ان في الجسم البشري مستودعين اشبه الاشياء بالدينامو تكمن فيهما قوتان كهربائيتان هما قوة النشاط وقوة الشعور والاحساس واليهما يرجع على الراجح التباين الخلقي

ونزيد على ذلك الآن بانهُ على ما يكون لدى الفرد من الكترونات احدى هاتين القوتين يبدو منهُ استعداد خاص الى ترسم خطط معينة في المستقبل يجنح اليها عند دخوله في سن الشباب باساليب متنوعة مختلفة لا تخفى على الفاحصين بتربيته والمخالطين لهُ وتزداد جلاء وبياناً كلما اكتسبت لديهِ قوة التمييز والادراك . وينفرد بهذه الميول دون اخوتهِ أو اقاربهِ أو جيرانهِ او قرائنهِ بحيث تكاد لا تجد واحداً منهم يحاكيهِ في قوة اندفاعهِ اليها . وكما ترى تبايناً كبيراً في هذه الميول ترى تبايناً أوضح واجلى في قوى النفس على اختلافها كالنشاط والشعور والذكاء. ترى انساناً متفوقاً في النشاط مثلاً ولكنهُ دون الآخر في الشعور أو دونه في الذكاء او دونهُ في الميل الى الخير او في اقتحام المخاطر او في المروءات او الهمم. وترى آخر يجهد نفسه ويتلذذ بالشقاء والعناء ليريح الآخرين وينيلهم ما بهِ يتهنون وينعمون . وكما نشاهد تفاوتاً كبيراً بين أعضاء الاجسام المختلفة في قواها ومدى وظائفها فيتفوق قرد ببصره الحاد او بعضله القوي وآخر بجهازه الهضمي وآخر بقوة قلبهِ أو سمعه أو شمه الى ما لا يمد ولا يحصى، كذلك نرى ان القوى العقلية الكامنة التي نسميها بالمدارك غير متساوية بين الناس فهذا يمتاز بقوة الفكر وهذا وان كان دونهُ فيهِ الا انهُ يفوقهُ في قوة الذاكرة او قوة التصور او قوة الابداع او الاكتشاف او قوة الارادة او تألق الذكاء وهكذا الى ما لا نهاية لهُ من هذا التفاوت المتأثر بحكم كيات الالكترونات المتوارثة عن الآباء والامهات

اختلاف الفلاسفة

ولقد كانت هذه المشاهدات علة انشقاق الاخلاقيين في ارجاع تباين الخلق في سجاياهم واخلاقهم الى اسبابها الاولى : فذهب بعضهم وعلى رأسهم الفيلسوف الشهير شوبنهاور Schopenhauer على ان الاخلاق في الانسان فطرية موروثة ولانها كذلك فهي لا تتغير ولا تتحول بل تثبت فيهِ وفي نسلهِ ثبوتاً راسخاً لا يتزعزع

لدخولها ضمن ذرات جسمهِ المتوارثة وان ما يبدو لاعيننا فيها من التبديل والتحويل هو عرضي طائش عابر لا جذور لهُ ولا يقوى ثباتاً أمام الغرائز الفطرية المستكنة في النفس ، وهي التي فضلا عن كونها ترسم لصاحبها خطط الحياة فانها تقودهُ الى ما يراهُ حسناً وخليقاً بهِ مهما اثار سخط الناس او غضبهم أو كان بعيداً عن ذوقهم او استحسانهم أو كان على العكس منطبقاً عليها . واضاف شوبنهاور بان قال قوله المشهور « كل امرئ يسير بطبيعتهِ الذاتية الثابتة التي لا تتحور وأن مابهِ من طبائع وغرائز كامن في نفسهِ كوناً راسخاً لا يتحول »

وذهب آخرون على النقيض من المتقدمين وقالوا ان لا أثر في فطرة الانسان ولا في طبيعتهِ من الاخلاق والغرائز وان كل نفس بشرية تولد طاهرة خالية منها بتاتاً ثم تطرأ عليهِ بحكم البيئة والوسط ومختلف تعاليم التي يتلقاها طوارىء ، جميلة كانت أو ذميمة . سامية أو سافلة . فاضلة اوشريرة

نادى بهذا المذهب فلاسفة الاخلاق في القرن الثامن عشر أمثال هيلفيسيوس Helvétius وروسو Rousseau . وستيوارت ميل Stuart Mill وجميع من تأثر بفضل التربية في تقويم النفس وتهذيبها وقالوا بان ما نشاهدهُ من دلائل الرقي والتكمل الخلقي ليست لهُ أسباب وراثية مطلقاً وانها كلها اكتسابية طارئة بعد الولادة

واضاف على ما تقدم الفيلسوف بايوه Payot ان الطبيعة لا تكوّن من عندياتها أخلاقاً ولا غرائز بل ما قد يكوّن بها منها فانهُ طارئ عليها بعد الولادة بطرأ تدريجيًّا وبطء واضح بحسب تدرج المرء وتقدمهِ في السن وعليهِ يتعذر اعتبارها فطرية متوارثة »

هذا ومع احترامي التام لرأي كل فريق من هذين الفريقين فاني اجد كلاً منهما متطرفاً فيما ذهب اليهِ فان الاولين وان كان لهم الحق في الذهاب الى توارث الغرائز فانهم غضوا النظر عن امر جوهري اصبح عماد الحضارة الراهنة في تمدن الاجناس البشرية برمتها هو التربية والتعليم وفضلها في التهذيب والتمدن لا يحتاج الى تبيان . واجد الفريق الثاني وان كان محقًّا بارجاع الفضل في تهذيب الاخلاق الى التربية فقد انكر شيئاً ظاهراً لكل عين مدققة وهو توارث بالتكثير من الغرائز عن الاجداد والآباء توارثاً طبع اصحابها بطوابع خاصة يمتازون بها عن باقي الافراد سواء كانوا من العائلة نفسها او من البعيدين عنها

وليسمح لنا الفريقان في التدليل على رأينا هذا

تطرف الفيلسوف شوبنهاور

اغمض الفيلسوف شوبنهاور عينه عن مؤثرات التربية الفاضلة في تكوين الكمالات في النفس البشرية ووقف جامداً عند مبدأ التوارث الخلقي عن الامهات . وابي اسوق للدلالة على هذا التطرف مثلاً تاريخيًّا مشهوراً اخترته لوقوعه في البلاد الغربية نفسها التي ولد فيها ذلك الحكيم الاخلاقي الشهير . وعندنا في الشرق امثلة كثيرة لا تحصى وكلها دلت على قابلية النفس البشرية للتطور والتأثر كلما وجدت لها مرشداً من التربية الحقة الى سبيلها القويم . واقصد بالتربية الحقة التربية الجسدية والعقلية والخلقية التي لاعتقادي التام في فضل تأثيرها في النفس ارجو ان تنهض حكومتنا المصرية ومختلف هيآتنا الدينية والعلمية والنيابية لجعلها الاساس الذي تقيم عليه صرح نهضتنا القومية جاعلين بهذا عصرنا الراهن عصر إحياء وتجديد وبناء لنال النعيم المرجو والمركز المحترم اللائق بتاريخنا بين باقي الامم

الحكيم فنيلون

في عصر لويس الرابع عشر ملك فرنسا كان الدوق دو بورجوني Le Duc de Bourgogne ناشئاً على طبائع شكسة وغرائز شريرة واخلاق دنيئة وكان متعطرساً مختالاً صلفاً شامخاً جباراً عنوداً فاخافت هذه الغرائز القبيحة الهمجية الملك فاراد تهذيبها فعهد الى ذلك المربي الحكيم الشهير بالتقوى وبمضاء العزيمة وتألق الذكاء فينيلون Fenelon (١) فتولى تربيته فاجمع الناس في تلك الايام على نجم فشله في تقويم اخلاق نافلة منحطة انحطاطاً مريعاً كاخلاق الدوق دوبورجوني ولكن ذلك الفيلسوف الذي كان يعرف ما للتربية من القوة الفعالة في

(١) ولد فنيلون سنة ١٦٥١ من اسرة فرنسية عريقة في الشرف وكان في طفولته ضعيف البنية فتلقى مبادىء العلوم في البيت ثم قضى بضع سنوات في جامعة كاهور وانتقل سنة ١٦٦٩ الى باريس فدرس في مدرسة سانت سيلبيس اللاهوتية برعاية عمه الركيز انطوان دي فنيلون . وكان ميالا الى القيام برحلة الى الشرق الادنى فلقي مقاومة من اهله فبقي في مدرسة سانت سيلبيس اللاهوتية الى سنة ١٦٧٩ ثم تقلب في مناصب الرهبنة الى ان عينه الملك لويس الرابع عشر معلماً لدوق برغندي (بورغونيه) وبان معلماً نه ال ان اختلف مع بوسيه على مسائل لاهوتية فالف كتاباً يدفع به عن رأيه ولكن نبأ الجدال اتصل بالبابا انوسنت الثاني عشر فحكم ليوسيه سنة ١٦٩٩ فعصل فنيلون من بلاط الملك لويس الرابع عشر وقضى باقي حياته في كمبري لم يبرحها الا مرة واحدة

النفس اعتمد على مواهبه الفائقة ومعارفه وعلومه وآدابه وقبل التطوع لهذا العمل الشاق فاتبع في تهذيبه اسلوباً رائقاً تقوده الحكمة والتبصر والمهارة والصبر الى ان تمكن من شعور الشاب وعواطفه وقلبه فأثر فيها التأثير الباهر المحمود الذي نقله من حال الى حال ومن طبيعة الى طبيعة وبعد ان نفره من خشونة اللفظ وهمجية الغرائز استدناه الى التواضع والمعاملة بالحسنى وما تنجذب اليه النفس من الكمالات والفضائل ومحبة الخير والتقوى وخشية الله في السر والعلانية . فكان كلما استأصل منه عيباً أفاض عليه بدلاً منه فضيلة . وكان من اسباب التهذيب والتربية التي اعتصم بها انه الف لهذا الشاب كتابين في الآداب هما للآن اشهر من نار على علم يعرفهما المصري والهندي واليابابي والاميركي معرفة جميع امم الغرب لانهما ترجما بجميع اللغات ونالا من الناس تقديراً ليس فوقه تقدير لما احتويا عليه من مختلف الكمالات والفضائل مفرغة في قوالب جذابة ضمن قصص منسقة تثير في النفس الاعجاب وتشهيها للاخذ بالمبادىء الفاضلة اهمها الشجاعة والصبر على الاهوال في سبيل الرغائب وبلوغ المآرب واستخدام الحذر والتبصر في عواقب الامور قبل الاقدام عليها . وتعلمها معاني الكرامة الذاتية وقيمة الشرف وحب الحرية والذود عن ذمار الوطن والتزام الرحمة والرأفة بالبؤساء والمرضى والمعوزين وهكذا من امثال هذه المواعظ الذهبية مكتوبة باساليب راقية تهواها وتنجذب اليها نفس كل قارىء. هذان المؤلفان هما تيليماك Télémaque واحاديث الاموات Les dialogues des morts ولم يكتف بهذين المؤلفين بل امده بروايات أدبية اخلاقية اخرى فكان لابد لهذا الاسلوب التهذيبي البديع الذي اتخذه الفيلسوف فينيلون من اثر فضل نافذ في نفس الدوق الشاب فتغيرت اخلاقه وتلطفت طبائعه تلطيفاً باهراً محموداً وتربت نفسه على ان تكون كريمة تجنح الى الاقدام على كل عمل جليل في ذاته نبيل في غاياته مسبوق بالروية والتبصر في اسبابه ومسبباته مقرون بالثبات والمضي فيه الى النهاية. فدهش الناس جميعاً اذ رأوا الدوق غير دوقهم الاول وقد تخلق باخلاق سامية وصفات فاضلة كانت سبب مجده وتقديره وانجذاب الخاص والعام اليه . وعليه فقد أقام الفيلسوف فينيلون بهذه الآية المأثورة اسطع الدلائل على ان طبائع البشر تحاكي بذور النبات فانها تنمو وتجود وتثمر متى صادفت ارضاً خصبة وعناية ورعاية وتربية من يهمه شأنها ويعنى بزرعها وتعهدها

عثمان مرتضى